الرحالة أبو عبد الله المكناسي
يؤرخ للعلاقات الاقتصادية بين الجزائر وتونس خلال القرن 18م

أ/ مشوشة سمير
جامعة الأمير عبد القادر للعلوم الإسلامية
قسنطينة (الجزائر)

لم يترك الإسلام أي وسيلة تعود على الإنسان بالفائدة إلا وحثه على فعلها وممارستها فنجد من هذه الأمور الرحلة، والتي لها فوائد عديدة خاصة وأنها وردت في القرآن الكريم[1] في سورة قريش في قوله تعالى: ﴿لِإِيلَٰفِ قُرَيْشٍ ۝١ إِۦلَٰفِهِمْ رِحْلَةَ ٱلشِّتَآءِ وَٱلصَّيْفِ ۝٢ فَلْيَعْبُدُواْ رَبَّ هَٰذَا ٱلْبَيْتِ ۝٣ ٱلَّذِىٓ أَطْعَمَهُم مِّن جُوعٍ وَءَامَنَهُم مِّنْ خَوْفٍۭ ۝٤﴾[2]، وقوله تعالى في سورة الحج: ﴿وَإِذْ بَوَّأْنَا لِإِبْرَٰهِيمَ مَكَانَ ٱلْبَيْتِ أَن لَّا تُشْرِكْ بِى شَيْـًٔا وَطَهِّرْ بَيْتِىَ لِلطَّآئِفِينَ وَٱلْقَآئِمِينَ وَٱلرُّكَّعِ ٱلسُّجُودِ ۝٢٦ وَأَذِّن فِى ٱلنَّاسِ بِٱلْحَجِّ يَأْتُوكَ رِجَالًا وَعَلَىٰ كُلِّ ضَامِرٍ يَأْتِينَ مِن كُلِّ فَجٍّ عَمِيقٍ ۝٢٧﴾[3]، وهذه الرحلات لم تكن ذات طابع واحد فقد كانت علمية، دينية، تجارية، استكشافية، فساهمت كثيرا في معرفة ووصف المناطق ومختلف الطرق التي تسلكها القوافل، ولا شك أن أمتع كتب الرحلات وأرفعها قيمة علميا وأدبيا وتاريخيا هي التي تأخذ طابع ديني بهدف الحج أو علمية بهدف طلب العلم أو الاثنين معا[4]، وانتقل هذا النوع من السفر من المشرق إلى بلاد المغرب وأصبح جزءا من طريقة الانتقال من منطقة إلى أخرى وسميت "بالرحلات الحجازية"، وكان سكان هذا بلاد المغرب يتبعون منهج المشرقيين في الرحلة خاصة ذات البعد الديني وهو أداء فريضة الحج، وقد تم تدوينها في شكل يوميات وكان أكثرهم ينتمون إلى العلماء المحليين[5]، وقد ظهر في تاريخ بلاد المغرب وسيلة للتواصل التاريخي على مر القرون متمثلة في كتب الرحلات بمختلف أنواعها، وكان للجزائريين والمغربيين دور في

كتابتها مع بدايات التواجد العثماني بالمنطقة، لكن الملاحظ هو إبداع المغربيين في إنتاج مختلفها (حجازية، وغير حجازية) وهذا مقارنة بالجزائريين، فنجدها كتبت نثرية أو شعرية، وفي هذا الإطار برز العديد من الرحالة المغاربة خاصة خلال القرن (12هـ/ 18م) وأغلب رحلاتهم حجازية، فكان لهم دور كبير في إخراجها كمصادر تاريخية هامة اعتمد عليها أغلب الباحثين في دراساتهم، وأبرز هذه الرحلات ذات القيمة التاريخية الهامة نجد رحلة المكناسي والموسومة بـ "إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب"(1200هـ/ 1785م)[6].

ـ ترجمة صاحب "رحلة المكناسي":

هو أبو عبد الله بن عثمان المكناسي[7] المسطاسي[8] ولد بمكناس[9] المغربية ولهذا يكنى بالمكناسي، لم يحدد في كتب التراجم والسير والأعلام تاريخ ميلاده، لكن المرجح أنه ولد في أواخر الثلث الأول من القرن (12هـ/ 18م)[10]، كان أبوه من الواعظين والمدرسين بأحد مساجد مكناس مما أهله أن ينبع من المعارف العلمية وهو في ريعان شبابه وكذلك من منطلق أن مكناس كانت حاضرة تاريخية للدولة العلوية[11]، فبعد ذلك عاش في وسط بلاط السلطان المغربي محمد بن عبد الله العلوي[12] وعين كاتبا له، وهنا اختلفت المصادر حول اللقب الذي حمله فمنهم من يقول أنه كاتب السلطان العلوي وهناك مصادر أخرى تقول بأنه شغل وحمل لقب الوزير، قام بعدة رحلات أهمها التي قادته كسفير إلى إسبانيا سنة 1193هـ/ 1779م وأخرج مؤلفا حول رحلته هذه والموسومة بـ "الإكسير في فكاك الأسير" وأرسل كذلك إلى إيطاليا بنفس الصفة[13]، وفي الرحلة الثالثة إلى استانبول ألف أهم مؤلفاته بعنوان "رحلة المكناسي" والموسومة بـ "إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب" وكانت سنة 1200هـ/ 1785م[14]، بعد ذلك

بسنوات توفي جراء الطاعون الذي جاء على المغرب الأقصى سنة 1213هـ/ 1798م[15].

- التعريف بكتاب رحلة المكناسي والمسماة "إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب" (1200هـ/ 1785م):

بعد رحلة حج المكناسي والتي حملت صبغة دبلوماسية دينية من خلال ارساله في مهمتين كسفير للسلطان المغربي إلى الأستانة والتي مكث بها أكثر من سنة، فزار العديد من المكتبات والمراكز العلمية الشهيرة وبعد ذلك توجه للحجاز في المهمة الثانية لتبليغ ما تم إرساله من طرف محمد بن عبد الله العلوي[16] ومن خلال احتكاكه المستمر بالعلماء والفقهاء اكتمل نضجه الثقافي والعلمي[17]، وأثناء رحلته هذه ألف كتاب رحلة المكناسي والموسومة بـــ"إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب" سنة (1200هـ/ 1785م)، وقد ذكر بن سودة أن هذا الكتاب هو مخطوطة توجد نسخة فريدة منها في خزانة المؤرخ عبد الرحمن بن زيدان[18]، بالإضافة إلى نسخة أخرى موجودة على مستوى مؤسسة علال الفاسي بالرباط تحت رقم 708 وهي جزء من الرحلة فقط، وهناك نسخة أخرى موجودة على مستوى الخزانة العامة بالرباط برقم 2327، وأخرى بالخزانة الحسينية برقم 5264[19]، وقد كان للرحلة النصيب الوافر من التحقيق من خلال ما قام به الأستاذ محمد بوكبوط، وبعد القراءة والتمعن في مضمون هذه الرحلة القيمة سنصنفها في خانة البالغة الأهمية في دراسة تاريخ بلاد المغرب فهي تحمل في طياتها العديد من مميزات فترة المكناسي، ومن خلال كل هذا: هل تناولت هذه الرحلة جانبا من العلاقات الاقتصادية بين الجزائر وتونس خلال القرن 12هـ/ 18م؟ من منطلق الطريق الذي سلكه المكناسي خاصة مروره بالجزائر وتونس فحتما سترد بعض الإشارات القيمة في بعض نصوص الرحلة حول وجود نشاط وتبادل تجاري بين الإيالتين، والطريقة التي

أوصلتني إلى هذه الاستنتاجات هي عملية استنطاق هذه النصوص والروايات. وفيما يلي سأقوم بعرض النصوص والإشارات التي جاء في مضمونها وجود روابط وعلاقات اقتصادية بين الجزائر وتونس خلال القرن 12هـ/ 18م:

ـ النص الأول:

"... ومدينة تونس مدينة كبيرة مقصودة للمراكب البحرية، مؤسسة في بسيط من الأرض على ساحل بحيرة صغيرة أدخلت إليها من البحر، وهي كبيرة طولها نحو العشرين ميلا، وهي كثيرة الزيتون تحمل زيتها المراكب إلى بر النصارى طول أيام السنة(1)، فقد أخبرني بعض أهلها الذين كانوا على قائمين بمئونتنا، أن أعشار زيت تونس فقط من غير عملها ستة وثلاثون ألف مطر، والمطر فيه قلتان والقلة اثنان وثلاثون رطلا، مستلزم عند من استلزمه بهذا العدد ومعلوم أنه استلزمه ليربح فيه، ومعاصير زيت تونس وما حولها نحو ثلاثمائة(2)... وقد مات من علمائها وطلبتها كثير في الوباء الذي كان عندهم في سنة مائتين وألف وما بعدها، وتمادى بها إلى قرب ورودنا عليها وقد وجدناه انقطع، فقد أخبرني أهلها أنهم دفنوا في الوباء زهاء ثمانين ألفا، فقد كانوا يدفنون في اليوم الخمسمائة وما يقرب من الألف لطف الله بالمسلمين(3)..."[20].

(1)- يوضح لنا المكناسي أن سلعة زيت الزيتون بتونس كانت أهم ما يتم تصديره عبر موانئ هذه المدينة، وهذه البضاعة اشتهرت بها تونس على مر التاريخ، فأراضيها الزراعية تتوفر على كميات كبيرة من أشجار الزيتون، والواضح أنها مثلت أساس صادراتها إلى الدول الأوروبية[21]، وبالمقابل تأثرت هذه التجارة المربحة بالقرصنة البحرية[22] فمن خلالها اضطربت العلاقات الاقتصادية بين ضفتي المتوسط وحتى بين بلدان المغرب خلال العهد العثماني[23].

(2)- يورد لنا المكناسي أن عدد معاصر زيت الزيتون بتونس تقدر بنحو 300 معصرة، وجاء في سياق كلامه أنه يتم تصديرها "بالمطر"، وهو أحد

المكاييل الذي كان يتم استعماله في بيع وتصدير زيت الزيتون نحو أوروبا أو بلدان المغرب[24]، وبعملية بسيطة: (المطر – قلتان)، (والقلة الواحدة = 32 رطلا[25])، وبما أن تونس تصدر ما يقرب 36 ألف مطر من زيت الزيتون، أي معناه 3600×2= 72000 قلة زيت، وبما أن القلة الواحدة = 32 رطلا، إذن: 72000×32= 2304000 رطل زيت، فهذا ما يؤكد أنها تجارة مربحة لإيالة تونس، ومن منطلق أن أقرب الموانئ جغرافيا لميناء مدينة تونس هو ميناء القالة بالجزائر، فإنه من المؤكد أن جزءا منها يتم تصديره إليها[26].

(3)- نجد في هذا النص انتشار وباء قاتل بتونس خلال سنة 1200هـ/ 1785م والواضح أن المكناسي يقصد "وباء الطاعون"، فهذا الوضع الصحي ليس بجديد عليها فقد ظهر بالإيالة بين سنتي (1012هـ/ 1604م)-(1116هـ/ 1705م)، وخلال هذه المدة الزمنية التي وصلت إلى القرن، هاجم هذا الطاعون سكان تونس وأدى إلى وفاة العديد منهم، وهو ما أدى إلى تراجع نموها الديمغرافي، وقد ربط هذا الوباء بالدرجة الأولى بتلك الأزمات الغذائية (المجاعات) التي ضربت العديد من المناطق التونسية طوال القرن 11هـ/ 17م[27]، وبالمقابل أيضا عرفت الجزائر خلال القرن 12هـ/ 18م انتشار أوبئة ومجاعات أزمت الأوضاع المعيشية للسكان خاصة بالأرياف[28] لكن بالرغم من كل هذا لم تتأثر عملية التواصل التجاري بين الإيالتين[29].

– النص الثاني:

"... وسافرنا منها(1) ثالث رجب من سنة اثنين ومائتين وألف، فكان مبيتنا بظاهر بلدة يقال لها تبربة(2) وصلناها على خمس ساعات... ومن الغد سافرنا فسرنا ست ساعات، ونزلنا بظاهر قرية يقال لها مجاز الباب(3)، مؤسسة على وادي يقال لها مجردة(4)... وعليه قنطرة في غاية الإتقان والإحسان... ومن الغد سافرنا من هذه البلدة فنزلنا بظاهر قرية يقال لها تستر على أربع ساعات... ومن الغد رحلنا منها فنزلنا على قرية يقال لها تبرسق على أربع ساعات...ومن الغد سافرنا منها فنزلنا بموضع يقال له

القنطرة(5)... وصلناهم على سبع ساعات، ومن الغد سافرنا فنزلنا على بلدة يقال لها الكاف على مسيرة أربع ساعات... وهذه البلدة آخر عمل صاحب تونس وحد إفريقية، ومن الغد سافرنا منها فسرنا ثمان ساعات ونزلنا على ماء يقال له الزرقاء(6) اسم عين هناك، وسافرنا من الغد سبع ساعات ونزلنا على عرب أهل بوس بموضع يقال له تفش(7)، ومن الغد سافرنا فسرنا ثمان ساعات، ونزلنا بموضع يقال له مرج كحيل(8) على عرب أهل خيام، ومنه لموضع يقال له مهيرز(9) وصلناه على تسع ساعات، ومنه نزلنا بظاهر قصمطينة(10) (كذا) على أربع ساعات..."[30].

(1)- يقصد من خلال روايته : مدينة تونس .

(2)- تبربة = طبربة: بلدة تونسية قديمة، شيدها الأندلسيون في بداية القرن 11ه/ 17م، كانت تسمى قديما "ثوبوربو مينوس"(Thuburbo Minus)، تقع على بعد 21 ميلا غربي مدينة تونس، على ضفاف وادي مجردة، أراضيها خصبة[31]، تكثر بها الورشات الصغيرة لصناعة الشاشية التونسية[32].

(3)- مجاز الباب: بلدة تونسية صغيرة، يشقها وادي مجردة، بينها وبين عاصمة الإيالة (36) ميلا، أعاد الموريسكيون ترميمها سنة (1019هـ/ 1611م)[33]، يربطها بالجانب الآخر قنطرة كبيرة، أراضيها الزراعية خصبة[34].

(4)- يقصد وادي مجردة أو "بقرداس قديما"[35].

(5)- القنطرة: المعلومات عن هذا القرية قليلة جدا، لكن الواضح أنها تقع بالقرب من مدينة الكاف.

(6)- الزرقاء: المعلومات عن هذا المكان الذي نزلت به القافلة شحيحة جدا، لكن حسب ما جاء في كلام المكناسي أنها اسم منطقة تنسب لعين موجودة بها، والواضح أنها تقع على الحدود بين الجزائر وتونس بعد مدينة الكاف .

(7)- تفش = تيفاش: بلدة قديمة ببلاد إفريقية[36]، أراضيها خصبة، من أهم منتوجاتها الزراعية القمح والشعير[37] قال عنها البكري: "... مدينة أولية شامخة البناء وتسمى تيفاش الظالمة وفيها عيون ومزارع كثيرة..."[38].

(8)/ (9)- المعلومات عن قريتي مرج كحيل ومهيرز شحيحة لكن من كلام المكناسي يفهم أنهما قريبتين من قسنطينة.

(10)- قصمطينة: يقصد قسنطينة.

ـ النص الثالث:

"... وهي أن قصمطينة(1) مؤسسة على ربوة... وهي مدينة متوسطة يسقفون أسطحة بيوتها بالقرمود، ولعله من أجل الثلج فهي شديدة البرد، وعليها وارد كثير وعمارة زائدة، فلا يكاد الإنسان أن يمشي في داخلها إلا بمشقة من كثرة الازدحام، ويمر السوق خارج بابها في سائر الأيام ما رأيت بلدة أكثر واردا منها، وهي منبع البغال فمنها تفرق في البلاد، فلو ترى ما يدخل منها إلى السوق في كل يوم لتقضي العجب، يأتي العرب بها أي بالبغال يسوقونها كأنها القطيع من البقر، وبها رخاء كثير ومن الأشياء موجودة إلا أنها إلى البادية أقرب(2)، وهي من عمل صاحب الجزائر وبها خليفته ويسمونه باي الشرق(3)، فأقمنا بها نحو سبعة أيام تقضينا فيها ضروریاتنا(4) وسافرنا منها إلى الجزائر فوصلناها على أحد عشر يوما(5)..."[39].

(1)- يقصد قسنطينة.

(2)- يورد لنا المكناسي وصفا لمدينة قسنطينة والتي يتحدث عن كيفية تشيدها وشكل عمرانها وسكانها، بالإضافة إلى ما يميز أحيائها وشوارعها، أما عن أسواقها فقال عنها بأنها عامرة وأسعارها رخيصة، والمؤكد في هذا المظهر الاقتصادي وجود العديد منها وكان أهمها على الإطلاق "سوق الجمعة" الذي أصبح بمثابة أشهر سوق في هذه المدينة خاصة في عهد صالح باي[40]، والذي كانت مختلف السلع والبضائع تتوافد عليه من جميع المناطق خاصة عن طريق القوافل التجارية، كما أورد في حديثه أن أغلبها -

البضائع- تجلب إليها عن طريق البغال، وهو ما يؤكد أكثر أنها لم تكن فقط عاصمة سياسية لبايلك الشرق، بل تعدت ذلك لتحمل صفة عاصمة اقتصادية للشرق الجزائري، وعلى هذا الأساس كانت تمثل ركيزة المبادلات التجارية بين الجزائر وتونس.

(3)- إذا ما أسقطنا تواريخ حكم البايات الذين تداولوا على حكم قسنطينة وتاريخ وصول المكناسي إليها سنة 1200هـ/ 1785م، فمن المؤكد أنه يقصد "صالح باي"، والذي حكمها بين سنتي 1184-1206هـ/ 1771-1792م[41].

(4)- يورد لنا المكناسي أنه أقام مدة سبعة أيام بقسنطينة بهدف قضاء حاجاته، وهنا السؤال الذي يطرح: هل مكوثه فيها لهذه المدة كانت لأهداف معينة؟ المؤكد من خلال وصفه لأسواقها العامرة كان هدف مكوثه فيها هو التزود بما يلزم القافلة من زاد وتبديل رواحل القافلة أو شراء أخرى لإكمال رحلة عودته إلى المغرب، ومن منطلق مروره ببعض المناطق التونسية وإقامته فيها لعدة أيام، فإن احتمال جلب قافلته لسلع وبضائع تونسية جد وارد خاصة وأن ما ركز عليه في كلامه ووصفه لقسنطينة هو مظهر أسواقها العامرة.

(5)- حدد لنا المكناسي مدة السفر بين قسنطينة ومدينة الجزائر والمقدرة بـــ 12 يوما.

- النص الرابع:

"... وقد مررنا في بلاد في هذه المسافة يقال لها البيبان(1) ما رأيت أصعب ولا أمنع منها...وأهل هذه البلاد إباء لا ينقادون إلى الباي أي الحاكم، بل ربما قبضوا منه عند إرادته المرور إلى الجزائر في بعض الأعوام فصار ذلك عادة لازمة، وكذا القفل والمسافرون لا يقدمون على المسير في هذه البلاد إلا مع رفقة كثيرة، ويرصد الناس ما يبعث باي قصمطينة من الخراج عند كل ثلاثة أشهر، فيبعث معه العسكر فيمر الناس معهم، وقد اتفق أن مررنا مع هذا العسكر(2)..."[42].

(1)- يقصد بها برج بوعريريج حاليا.

(2)- يحدثنا المكناسي في هذا النص أن الطريق بين قسنطينة والجزائر غير آمنة، وهذا بسبب ما تمارسه بعض القبائل المنتشرة على طول هذا الطريق من صعلكة لمختلف القوافل التي تمر بها، وأورد أيضا أن ما تنتظره في الأساس هي تلك القوافل الرسمية التي تحمل ما يسمى بـــ "دنوش بايلك الشرق"، وشرط مرورها هو دفع ضريبة لهذه القبائل، وكثيرا ما يتم الاستعانة ببعض العسكر لتأمينها[43]، وأوضح لنا كيفية مرور قافلته على هذه المنطقة والمتمثلة -حسب قوله- في الاندساس ضمن قافلة الدنوش.

ـ النص الخامس:

"... ولما وصلنا إلى الجزائر(1) خيمنا بظاهرها ولم ندخل إليها، وقد وجدنا فيها الوباء نعوذ بالله، وقد كان قبل وصولنا إليها قويا، فكان يموت كل يوم على ما حكي لنا نحو الثلاثمائة، وقد خف أمره لما كنا هنالك فكان يموت في اليوم نحو عشرة... وقد وجدنا بهذه المدينة وأعمالها الطاعون ومات به خلق كثير(2)، ثم سافرنا منها فوصلنا تلمسان(3) على اثني عشر يوما..."[44].

(1)- الجزائر: مدينة ساحلية كبيرة، كانت تسمى "جزائر بني مزغنة"، عاصمة إيالة الجزائر خلال العهد العثماني، تقع في الطريق بين إفريقية والمغرب، بينها وبين بجاية أربعة أيام[45]، بها أسواق عامرة، وموانئ ومراسي هامة[46]، يتصل بها عدة سهول أهمها: سهل متيجة[47].

(2)- يورد لنا المكناسي في هذا النص بأنه وصل إلى مدينة الجزائر ولم ينزل بها، بل بقي على تخومها، لكن لماذا؟ من المؤكد أن السبب يعود أساسا إلى انتشار وباء خطير هلك جراءه العديد من سكانها والواضح أنه من الأوبئة الفتاكة[48]، فقد شكل الطاعون أخطر هذه الأمراض خلال العهد العثماني وأثر كثيرا على الوضع الصحي للسكان والتي ارتبطت بدورها بعوامل أخرى أهمها الزلازل والفيضانات والجفاف واجتياح الجراد للأراضي

الزراعية، فعرفت ظهور العديد من الأوبئة الفتاكة خاصة الطاعون خلال القرنين 11-12هـ/ 17-18م أهمها سنوات:

1010هـ/ 1601م.

1026هـ/ 1617م.

1141هـ/ 1728م.

1162هـ/ 1749م.

1200هـ/ 1785م.

1207هـ/ 1793م[49].

وما يمكن ملاحظته عن هذه الأمراض هو تكرارها تقريبا كل 10 سنوات، والمؤكد أن المكناسي في هذا النص يتحدث عن الوباء الذي ضرب مدينة الجزائر خلال سنة 1200هـ/ 1785م والذي أتى على أكثر من عشرين ألف نسمة من سكانها[50]، وإذا ما قارنا هذا الوضع الاجتماعي الذي عاشته الجزائر خلال القرن 12هـ/ 18م مع إيالة تونس فحتما سنخلص إلى تشابه في أوضاعهما الصحية[51]، فهل كل هذا سيؤثر على العلاقات التجارية بين الإيالتين؟، أكد الأستاذ سعيدوني أن من أسباب ظهور هذه الأوبئة بتونس والجزائر خلال العهد العثماني هي: "توافد التجار والبحارة والحجاج والطلبة من أقطار الشرق الأوسط إلى الموانئ الجزائرية"[52]، وهو ما يؤكد أن للتواصل التجاري بين تونس والجزائر دور هام في انتقال هذه الأوبئة، وأن سبب كل هذه الأوبئة في الإيالتين راجع إلى تردي أوضاعهما الاقتصادية خاصة في المجال الزراعي، والذي انعكس سلبا على المجالات الأخرى، وهذا ما يعلل أكثر تراجع مظاهر الحركية التجارية بين الإيالتين.

(3)- تلمسان: مدينة كبيرة قديمة[53]، تقع أقصى غرب إيالة الجزائر مع المغرب الأقصى، كانت عاصمة للعديد من الدويلات والممالك السابقة أهمها الدولة الزيانية 632-958هـ/ 1235-1554م[54]، بها أراضي زراعية خصبة، كثيرة البساتين والفواكه[55]، بينها وبين تاهرت أربع

مراحل[56]، أكسبها موقعها الجغرافي مكانة اقتصادية هامة وجعل منها محطة بارزة لكل القوافل التجارية والحجية القادمة من مدن شمال المغرب الأقصى[57].

من خلال ما أوردته من تحليل للنصوص التي جاءت في رحلة إياب المكناسي من المشرق انطلاقا من تونس مرورا بالجزائر وصولا إلى المغرب الأقصى، أمكنني أن أستخلص الطريق الذي سلكته هذه القافلة ويكون على النحو التالي: تونس – تبربة (طبربة) – تستر (تستور) – تبرسق – القنطرة – الزرقاء – تفش (تيفاش) – مرج كحيل – مهيرز – قسنطينة – البيبان – الجزائر – تلمسان.

ـ الخاتمة:

تميزت نصوص رحلة المكناسي بقصورها عن تصوير الجانب التجاري الذي يربط الإيالتين خلال القرن 12هـ/ 18م وهذا لطغيان الطابع الديني (الحج)، الاستكشافي (الجغرافيا)، الثقافي (العلمي)، وما تم تسجيله من إهمال لبعض التفاصيل التجارية –في رأيي– لا يتعدى وصف للأماكن الجغرافية وإشارات إلى عمليات البيع والشراء في بعض أسواق الإيالتين، وإن المتعامل مع متن هذه الرحلة يدرك صعوبة تحديد نوعية العلاقات الاقتصادية وخاصة الحركية التجارية بينهما، خاصة في ظل التعتيم الشبه الكامل الذي تميزت به عن وجود تواصل حقيقي وواضح مضمونها وما تم التوصل إليه هي اجتهادات واستنتاجات، فطبيعة هذه النصوص وما تحتويها من أسماء لشخصيات وأماكن جغرافية وردت بها صعبت من مهمتي في البحث عن تعريف وترجمة كاملة لها، وما توصلت إليه في هذا الإطار جاء بعد جهد كبير من خلال البحث في كتب التراجم والجغرافيا المتوفرة لدي، وحقيقة كل هذا فرض علي الدخول في مقاربات وترجيحات غير محمودة العواقب وغير مضمونة النتائج، من أجل رسم صورة عن وجود علاقة اقتصادية فعلية بين الايالتين خلال القرن 12هـ/ 18م.

ـ الهوامش:

(1) عواطف محمد يوسف نواب، الرحلات المغربية والأندلسية مصدر من مصادر تاريخ الحجاز في القرنين السابع والثامن الهجريين، مكتبة الملك فهد الوطنية، الرياض، 1996، ص29-32.

(2) القرآن الكريم، سورة قريش.

(3) القرآن الكريم، سورة الحج (26-27).

(4) عواطف محمد يوسف نواب، المرجع السابق، ص36-38.

(5) إغناطيوس يوليانوڤتش كراتشكوڤسكي، تاريخ الأدب الجغرافي العربي، ج2، تر: صلاح الدين عثمان هاشم، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، القاهرة، 1963، ص754، 765.

(6) لمعرفة الرحلات أهميتها وأنواعها خلال العهد العثماني ينظر: أبو القاسم سعد الله، تاريخ الجزائر الثقافي (1500-1800م)، ج2، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 1998، ص381-390، وكذلك: أبحاث وآراء في تاريخ الجزائر، ج1، ط3، عالم المعرفة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2009، ص177-180.

(7) ابن زيدان، إتحاف أعلام الناس بجمال أخبار حاضرة مكناس، ج4، تح: علي عمر، مكتبة الثقافة الدينية، القاهرة، 2008، ص129.

(8) محمد المنوني، المصادر العربية لتاريخ المغرب من الفتح الإسلامي إلى نهاية العصر الحديث، ج2، منشورات مجلة كلية الآداب، الرباط، 1989، ص52.

(9) مدينة تقع شمال المغرب بين الرباط وفاس وإحدى أهم حواضرها الشهيرة، للمزيد ينظر: شربل(كمال موريس)، الموسوعة الجغرافية للوطن العربي، دار الجيل، بيروت، 1998م، ص574؛ وحول مكان نشأة ومولد المكناسي ينظر: المكناسي(أبو عبد الله محمد بن عبد الوهاب بن عثمان، ت 1213هـ/ 1798م)، إحراز المعلى والرقيب في حج بيت الله الحرام وزيارة القدس الشريف والخليل والتبرك بقبر الحبيب" المسماة "رحلة المكناسي"، تح: محمد بوكبوط، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت، 2003م، ص269.

(10) للمزيد ينظر: محمد المنوني ومحمد بن عبود، «رحلة ابن عثمان المكناسي إلى القدس الشريف ومناطق من فلسطين»، *مجلة المناهل*، 39(1990)، ص20، 43.

(11) للمزيد ينظر: محمد الفاسي، «الكاتب الوزير محمد بن عثمان المكناسي»، مجلة تطوان، 5 (1960)، ص7.

(12) حول هذا السلطان المغربي أكثر ينظر: الزياني(أبو القاسم بن أحمد بن علي، ت 1249هـ/ 1833م)، الترجمانة الكبرى في أخبار المعمور برا وبحرا...، تح: عبد الكريم الفيلالي، ط2، دار نشر المعرفة للنشر والتوزيع، الرباط، 1991، ص63؛ المكناسي، المصدر السابق، ص17.

(13) شوقي ضيف، عصر الدول والإمارات الجزائر- المغرب الأقصى- موريطانيا- السودان، دار المعارف، القاهرة، 1995، ص518.

(14) المكناسي، المصدر السابق، ص48-51.

(15) شوقي ضيف، المرجع السابق، ص518؛ وكذلك ينظر: ابن سودة(عبد السلام)، دليل مؤرخ المغرب الأقصى، ضبط واستدراك: مكتب البحوث والدراسات، دار الفكر للطباعة والنشر والتوزيع، بيروت، 1997، ص227.

(16) المكناسي، المصدر السابق، ص42.

(17) الزياني، المصدر السابق، ص126.

(18) ابن سودة، المرجع نفسه، ص227.

(19) المكناسي، نفسه، ص22-24.

(20) المكناسي، مصدر سابق، ص325، 326.

(21) بيسونال(أندريه)، الرحلة إلى تونس، تر: محمد العربي السنوسي، مركز النشر الجامعي، تونس، 2003، ص62.

(22) قاسم(أحمد)، إيالة تونس العثمانية على ضوء فتاوى ابن عظوم(1574-1600م)، تقديم: عبد الجليل التميمي، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2004م، ص316، 317.

(23) التميمي(عبد الجليل)، دراسات في التاريخ العثماني المغاربي خلال القرن السادس عشر، منشورات مؤسسة التميمي للبحث العلمي والمعلومات، تونس، 2009. ص169.

(24) الواضح أن فيه بعض المبالغة في قيمة مطر الزيت، فهذا من منطلق ما أورده الأستاذ الصادق بوبكر: أن مطر الزيت يساوي وزنه 40 رطلا أي (20 كلغ)، للمزيد أكثر عن ذلك يراجع: بوبكر (الصادق)، إيالة تونس في القرن السابع عشر وعلاقتها التجارية مع موانئ البحر الأبيض المتوسط (مرسيليا وليفورنة)، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والأندلسية – الموريسكية، زغوان، 1987، ص7.

(25) قلة واحدة = 32 رطلا= 1 ويبة، للمزيد ينظر: الكردي (محمد نجم الدين)، المقادير الشرعية والأحكام الفقهية المتعلقة بها (كيل- وزن- مقياس) منذ عهد النبي صلى الله عليه وسلم وتقويمها المعاصر، ط2، مطبعة السعادة، القاهرة، 2005 ، ص160.

(26) للمزيد عن تجارة زيت الزيتون بتونس وكميات صادراتها ينظر:

- Boubaker (Sadek), La Régence de Tunis aux XIIé siécle :- ses relations commerciales avec les ports de L'Europe méditerranéenne, Merseille et Livourne, publications de .la R.H.M et de C.E.R.O.M.A, Zaghouan,1987 p-p. 116-119 .

(27) Boubaker,op.cit ; p-p. 49-56 .

(28) سعيدوني (ناصر الدين) والبوعبدلي المهدي، الجزائر في التاريخ، العهد العثماني، المؤسسة الوطنية للكتاب، الجزائر، 1984، ص-ص54-55. وللمزيد عن المجاعات والأوبئة التي ضربت الجزائر في أواخر القرن 12هـ/ 18م ينظر: العنتري(محمد الصالح بن محمد بن أحمد، ت1291هـ/ 1874م)، مجاعات قسنطينة، تح: رابح بونار، ش.و.ن.ت، الجزائر، 1974م، ص25 وما بعدها.

(29) Boubaker, op.cit, p-p. 57-58 .

(30) المكناسي، مصدر سابق، ص326-328.

(31) بيسونال، مصدر سابق، ص70، 71.

(32) دونان(هنري)، الإيالة التونسية، تر: محمد فريد الشريف، المطبعة العصرية، تونس، 2012م، ص72.

(33) بيسونال، نفسه، ص98-100.

(34) دونان، المصدر السابق، ص72.

(35) يطلق عليه سابقا اسم "بقرداس"، للمزيد ينظر، بيسونال، نفسه، ص93.

(36) الحميري(محمد بن عبد المنعم، ت 900هـ/ 1495م)، الروض المعطار في خبر الأقطار، تح: إحسان عباس، مكتبة لبنان، بيروت، 1984 ، ص146.

(37) ابن حوقل، صورة الأرض، منشورات دار مكتبة الحياة للنشر والتوزيع، بيروت، 1992، ص87.

(38) البكري (أبو عبيد، ت 487هـ/ 1094م)، المغرب في ذكر بلاد افريقية والمغرب، "المسالك والممالك"، دار الكتاب الإسلامي، القاهرة، د.ت، ص53؛ وكذلك ينظر: الحموي(شهاب الدين أبي عبد الله ياقوت، ت 574هـ/ 1178م)، معجم البلدان، مج2، دار صادر، بيروت، 1977م، ص66، 67.

(39) المكناسي، مصدر سابق، ص329، 330.

(40) للمزيد عن "مجمع سوق الجمعة بقسنطينة" ينظر: فاطمة الزهراء قشي، قسنطينة في عهد صالح باي البايات، منشورات ميديا بلوس، قسنطينة، 2005، ص72-76.

(41) عن صالح باي قسنطينة ينظر: أوجين فايسيت، تاريخ بايات قسنطينة في العهد التركي (1792-1873م)، تر: صالح نور، قرطبة للنشر والتوزيع، الجزائر، 2010، ص23 وما بعدها.

(42) المكناسي، مصدر سابق، ص329، 330.

(43) للمزيد عن كيفية تأمين دنوش بايلك الشرق ينظر: يمينة سعودي، الحياة الأدبية في قسنطينة (خلال الفترة العثمانية)، رسالة ماجيستر، إشراف: الربعي بن سلامة، كلية الآداب واللغات، جامعة منتوري، قسنطينة، 2006، ص47-50.

(44) المكناسي، مصدر سابق، ص330.

(45) الحموي، مصدر سابق، ص132.

(46) ابن حوقل، مصدر سابق، ص77، 78.

(47) الحميري، مصدر سابق، ص163؛ وكذلك يراجع: مجهول(ت ق 6هـ/ 12م)، الاستبصار في عجائب الأمصار، تعليق: سعد زغلول عبد الحميد، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1985م، ص132.

(48) للمزيد عن تاريخ الأوبئة بالجزائر ينظر: سمية مزدور، المجاعات والأوبئة في المغرب الأوسط (588-927هـ)/ (1192-1520م)، رسالة ماجيستر (غير منشورة)، إشراف: محمد الأمين بلغيث، كلية الآداب والعلوم الإنسانية، جامعة منتوري، قسنطينة، 2009، ص21 وما بعدها .

(49) عبد الله بن محمد الشويهد، قانون أسواق مدينة الجزائر (1107-1117هـ/ 1695-1705م)، تح: ناصر الدين سعيدوني، دار الغرب الإسلامي، بيروت، 2006م، ص141، 142؛ وكذلك ينظر: ناصر الدين سعيدوني، «الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي بالجزائر أثناء العهد العثماني»، المجلة التاريخية المغربية، (39-40) (1985)، ص431-445.

(50) سعيدوني(ناصر الدين)، ورقات جزائرية، دراسات وأبحاث في تاريخ الجزائر في العهد العثماني، ط2، دار البصائر للنشر والتوزيع، الجزائر، 2008 ، ص359، 360.

(51) مروش(المنور)، دراسات عن الجزائر في العهد العثماني، العملة، الأسعار والمداخيل، ج1، دار القصبة للنشر، الجزائر، 2009 ، ص135-152.

(52) سعيدوني، «الأحوال الصحية والوضع الديمغرافي بالجزائر أثناء العهد العثماني»، *المجلة التاريخية المغربية*، 39(1985)، ص431-445.

(53) القزويني(أبو عبد الله بن زكرياء بن محمد، ت 682هـ/ 1283م)، آثار البلاد وأخبار العباد، دار صادر، بيروت، دت ، ص172.

(54) مجهول، مصدر سابق، ص176؛ وللمزيد عن الدولة الزيانية ينظر: ابن الأحمر، تاريخ الدولة الزيانية بتلمسان، تح: هاني سلامة، مكتبة الثقافة الدينية للنشر والتوزيع، مصر، 2001.

(55) الحميري، مصدر سابق، ص135.

(56) أبو الفداء(إسماعيل بن علي بن محمود بن محمد بن عمر "صاحب حماة"، ت 732هـ/ 1331م)، تقويم البلدان، دار الطباعة السلطانية، باريس، 1850، ص137.

(57) كربخال(مارمول)، إفريقيا، 3ج، تر: محمد حجي وآخرون، الجمعية المغربية للتأليف والترجمة والنشر، الرباط، 1989، ص298-302.